



أسماء الشامية

## المدينة الدائرية: أسرار نشوئها وفلسفة معمارها.. واختفاؤها

عبر مقاله («تخطيط المدن في المشرق»: بغداد مدينة السلام نموذجاً)، يسرد البروفيسور الألماني مايكل يانسن مشاهد تاريخية عن الثقافات المحلية التي فتح الإسلام بلدانها، وصبغت شكل المدينة الإسلامية بصبغتها المعمارية الذاتية؛ مما جعل أشكال المدينة الإسلامية أكثر تنوعاً؛ فثمة مدن استطاعت الحفاظ على صبغتها المحلية -مثل دمشق- وأخرى تغير شكلها المعماري بعد اندماجها في الإسلام -كإسطنبول- ومدن أخرى أنشئت مثل بغداد؛ وهو إذ يصل إلى هذا التنوع بين المدن فبقصد تحديد الملامح التي شكلت مدينة بغداد بعد تحول مركز الخلافة من دمشق إلى بلاد ما بين النهرين، ثم يصل إلى استعراض الخلفيات التاريخية لنشوء المدينة ليصل إلى الحلقة النهائية من الإمبراطورية الفارسية التي كان إسلامها متزامناً مع نشوء مدينة بغداد؛ مما يعني إسقاط التأثيرات الفارسية على مدينة المنصور «مدينة السلام».

«كتيرسفسون» على مقربة من بابل القديمة في الألف الأولى قبل الميلاد والتي بقيت منها أجزاء تمثل أطلال المدينة مبرهنًا أن مهندس المنصور اتخذوها مثلاً يُحتذى لبناء بغداد الدائرية. وأعتقد بالنظر إلى مرحلة خلافة المنصور والمخاطر السياسية المحيطة بالدولة العباسية وقتها وسرعة انتقال الحكم بفعل الاغتيالات وأعداء الخارج، فإن ذلك يفسر أن مدينة السلام بنيت على أساس من المخاطر المحدقة، إلا إذا كان بناء السور ترقياً من أجل إثبات ذات مهيمنة ضمن حلقات الرفاه الطويلة في أسلوب حكم العباسيين وهو ما يؤيد رأي يانسن.

وأخيراً.. يثير يانسن تساؤلاً عن سر اختفاء المدينة الدائرية التي جرى دفن سورها الدائري على امتداد مائتي سنة إلى ألف سنة، ويرجع بحسب الروايات إلى طبقات العمارة التي أحيطت بها وذلك نتيجة زيادة الكثافة السكانية بفعل دخول أعراق مختلفة كالسلاجقة والبويهيين الذين غيروا في شكل العمارة، وحصار المغول وهدمهم للسور فضلاً عن تغيير نهر دجلة لجراه لمرات عديدة؛ إحداها تحول جريانه فوق مدينة المنصور وطمرها تدريجياً، إلا أن يانسن توقع أن يبقى ثمة أثر للمدينة الدائرية ولو بعد ألف سنة. ويحق ليانسن هذا التساؤل المحير؛ إذ كيف لمدينة ساهم في بنائها مائة ألف عامل بُنيت على مدار أربع سنوات -والتي بلغت مساحتها على شكل دائرة كاملة ١٦ ألف كم<sup>٢</sup>، وبلغ قطر دائرتها ٣٩٠,٥ مكعباً- ألا يبقى لها أي أثر يدل على هندستها عالية التكلفة؟ في حين ثمة ما هو أقدم منها ظلت أطلاله ماثلة حتى اليوم. وما ذلك إلا دليل على مركز بغداد الحضاري والعالمي والأطماع التي حامت حولها، والتي جعلت منها هدفاً سهل التدمير خلال فترة تمتد إلى ألف سنة فقط.

المستمد، وهو ما يعني اقتصادياً توفير الغذاء الذي هو المحرك الأساسي لعملية التجارة والزراعة والصيد، واعتدال المكان، وجودة الهواء، والقرب من المرعى والاحتطاب، وبناء سور يحصن أهلها من الأعداء، وليس أدل على ذلك من وصف المسعودي للإقليم الذي بنيت فيه مدينة السلام: «كان هذا الإقليم قبل الإسلام محل عناية ملوك الفرس؛ نظراً لما تمتع به من كثرة المرافق واعتدال الأرض وخصوبة العيش ومادة الرافدين وعموم الأمن». وحسب يانسن، كانت بغداد في أوج ازدهارها في القرن التاسع الميلادي في الثقافة والفنون والفلك، فقد نصبت المرصد الفلكية لتتبع حركة النجوم، وبنيت الإسطرلابات للمرة الأولى، ولعت أسماء مثل الخوارزمي والفرغاني ويحيى بن ماسويه، مما يعني أن مدينة السلام روعيت فيها جميع الشروط التي تضمن ازدهارها الاقتصادي والعمراني والعلمي بدءاً من موقعها الاستراتيجي على طرف نهر دجلة الذي سهل حركتها التجارية والعمرانية؛ فقد كانت مدينة مليونية يبلغ عدد سكانها مليوني نسمة مما يعني استقطاب الحركة السكانية نحوها. وبعد انتقال الحكم من هارون الرشيد إلى المأمون ثم المعتصم، قرر الأخير نقل مركز الخلافة من مدينة بغداد إلى مدينة سامراء بعد خمسين عاماً من تأسيس مدينة بغداد، وسرعان ما أعاد المعتصم مركز الخلافة مجدداً إلى بغداد، ولكن بغداد كانت قد فقدت بريقها الحضاري منذ وفاة هارون الرشيد.

لا يُعرف لماذا بنى المنصور مدينة السلام بشكلها الدائري بحسب يانسن، وهو يستبعد الأبعاد السياسية والاقتصادية وفلسفة المعمار ويرجح أن قصره ذا البوابات الذهبية قد بُني وسط المدينة على نحو واع دون المسجد، وذلك لرغبة الخليفة المنصور في السيطرة على مقاليد الأشياء دنيوياً ومعماريًا. لكنه يسرد سرداً تاريخياً خلصية مدينة

عسكرية ووظيفة اجتماعية ودينية من الناحية الفراغية داخل الأسوار وهذه الوظائف مجتمعة تمثل أهمية التوزيع للوظائف الحضرية التي يقول عنها يانسن إنها بحاجة لحضريات مكلفة جدا للوقوف على أهم الوظائف التي تؤديها تلك المساحات والتأكيد عليها، هذه الحضريات التي لم تبدأ بعد.

وحسب يانسن، فإن البيوت والمحلات كانت تقع ضمن الحلقة الخارجية للمدينة يحيط بها سور قوي ومنيع، وثمة سور آخر يحيط به خندق وهو السور الخارجي للأغراض الدفاعية. وأما المسجد وقصر الخليفة فكانا يقعان وسط المدينة، وهذا ما يمثل باعتقادي الترتيب الهرمي للمدينة الإسلامية إجمالاً المتمثل في تنظيم الفضاءات على تدرج هرمي واضح من العام إلى الخاص يبدأ بالمدينة ككل مروراً بالنسيج التقليدي للمحلات السكنية، ثم مجاميع الوحدات السكنية، ويشمل تنظيم الفضاءات في الوحدة السكنية نفسها حول الفضاء الواسع المفتوح وهكذا. وحسب يانسن، لم يصلنا الكثير عن التصميم الداخلي لمدينة بغداد إلا من خلال أخبار ألف ليلة وليلة وحكايات الرحالة ومحاولة بعض المستشرقين «إعادة تصميم المدينة» من خلال الأوصاف المبكرة لليقوي وياقوت الحموي، إلا أن أبا جعفر المنصور قد استدعى أمهر المهندسين لبناء مدينة بغداد من أمثال الحجاج بن يوسف وعمران بن وضاح وشهاب بن كثير. وحسب الروايات، عندما قرّر بناء المدينة سافر على امتداد نهر دجلة لاكتشاف المكان المثالي للمدينة، ويمكننا الاستنتاج من ذلك أن ثمة معايير خاصة لبناء مدينة بغداد وضعها أبو جعفر المنصور في الحسبان؛ بدءاً بموقع المدينة وانتهاءً بأصغر وحدة سكنية داخلها. وحسب ابن الربيع، فثمة عوامل تحدّد موقع بناء أي مدينة إسلامية منها سعة المياه المستنبة وإمكان الميرة

وقد كانت الحقبة (٧٥٠-٩٤٥م) شاهدة على الثقافة والفنون وتنوع المعمار، ولكن معظم الآثار العمرانية اندثرت بسبب حركة العمران المكثفة؛ مما جعل آثار مدينة السلام الدائرية «بغداد» تندثر تحت الحركة العمرانية المتأخرة. ويؤكد الكاتب أن المدينة الدائرية أو «المدورة» لم تكن المدينة الدائرية الأولى كما يزعم بعض المؤرخين العرب والمسلمين ويضرب شواهد على مدن معمارية بنيت قبل مدينة بغداد الدائرية، كما يعتقد أن المساحة الداخلية التي تقع داخل أسوار المدينة لا تؤدي أي وظيفة عملية، وهذا يؤيد رأي المستشرق جاكوب لانسر الذي زعم أن مدينة بغداد المدورة بنيت بسرعة وبدون إدراك، ومن خلال تتبع لبعض مصادر بناء المدن وتصميمها المعماري، وجدت أن ثمة مجموعة من العلاقات بنيت على أساسها أبرز المدن الإسلامية منها علاقات الإنسان بالمكان وهي التي تعين له حدوده ومعظم احتمالات التحرك والاجتماع والانفصال التي توفرها، وأخرى علاقات الإنسان بالزمن وإيقاعات الحياة والعمل وتحقيق الذات والموت، وعلاقات الإنسان بالإنسان وشبكات الصلات ومفاهيم الفرد والعشيرة والجماعة والطبقة، ويلاحظ أن تصميم مدينة بغداد يتجه داخل الأسوار نحو توجيه الوحدة السكنية نحو الداخل بانفتاحها على الفضاء الداخلي «الفراغي» وانغلاقها على الخارج حيث كانت الفناءات مساحات للمعيشة الخاصة للأسر والاجتماعات، وهذه ضمن أهم سمات المجتمعات الإسلامية التي تبني على مفاهيم دينية بالضرورة ومفاهيم الخصوصية الاجتماعية.

ويفسر بناء مدينة بغداد المسورة أيضاً فكرة الاحتواء والتضام المكاني؛ مما يعني تضام الناس وفق الجماعة التي تعني الوحدة، بناء على المفهوم الإسلامي، إذن فمن جهة الأسوار كانت الوظيفة التي تؤديها أولاً دفاعية